مخطوطات ألف ليلة وليلة

فى مكتبات أوروبا مخطوط منتاجو بأكسفورد

فاطمة موسى*

لعل حديث اكتشاف أوروبا طرفا من قصص (ألف ليلة وليلة) فى أخريات القرن السابع عشر، وظهور أول ترجمة لهذه القصص إلى اللغة الفرنسية فى مطلع القرن الثامن عشر، من أطرف قصص التقاء الحضارات التى نعرفها ؛ لما نتج عن ذلك من أثر فى تاريخ الأدب الفرنسى والأدب الإنجليزى من اهتمام بالقصص الشرقى والعمل على اقتناء مخطوطات لـ (ألف ليلة) وغيرها من المجموعات، هذا مع تنوع شخصيات الرجال ـ من رحالة وجنود وموظفين ـ الذين كانوا يستكتبون الرواة فى أنحاء المشرق الإسلامى ثم يبيعون تلك المخطوطات «الثمينة» لمكتبات الملوك والوجهاء فى أوروبا، إلى جانب مكتبات الجامعات والمتاحف.

كل ذلك يشكل فصلا مهما وشيقا فى تاريخ الآداب الأوروبية وفى دراسة تيارات التأثر المتبادل فى تاريخ الآداب بين أوروبا والمشرق فى مختلف العصور. وهو الأساس لاهتمامنا فى القرن العشرين بدراسة أدبنا الشعبى وكتاب (ألف ليلة وليلة) بالذات. وتعتبر دراسة أستاذتنا سهير القلماوى أول دراسة عربية أكاديمية تقدم للقارئ والباحث العربى خلاصة بحوث امتدت فى أوروبا وأمريكا لما يزيد على قرنين من الزمان.

كان المستشرق الفرنسى أنطوان جالان (١٦٤٦ ـ ١٧١٥) أول من قدم (ألف ليلة وليلة) إلى قراء الفرنسية، ومنها ترجمت إلى الإنجليزية وغيرها من لغات أوروبا (١٧٠٤ ـ ١٧١٢). كان جالان من خريجى مدرسة الألسن التى أنشأها الوزير الفرنسى كولبير تمهيدا لإعمال سياسة «شرقية» لملوك فرنسا. ونلمح فى حياة جالان الوظيفية والعلمية اختلاط السياسة بالتجارة بالطموحات الأدبية والبحثية مما يميز المستشرقين منذ بداية اهتمام أوروبا بدراسة ذلك الشرق، البعيد الغريب، مع بداية العصر الحديث.

* أستاذ الأدب الإنجليزى ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.

وفد جالان إلى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية سكرتيرا للسفير الفرنسى فى أخريات القرن السابع عشر، وكانت السفارات إلى الدولة العثمانية تمولها شركات التجارة الكبرى ويحدد بقاؤها فى المشرق بعدد قليل من السنوات. وكان جالان مكلفا بجمع مخطوطات ومسكوكات لخزانة الملك التى أضحت فيما بعد نواة المكتبة الوطنية فى باريس، وكذلك لحساب أفراد من المولعين باقتناء المخطوطات والآثار الفنية. قام جالان بعدد من الرحلات فى تركيا والشام لهذا الغرض، وسمع فى إحدى رحلاته طرفا من قصص (ألف ليلة وليلة). وعندما عاد إلى فرنسا بانتهاء مهمته فى مفتتح القرن الثامن عشر، أرسل له من حلب مخطوط لـ (ألف ليلة) من ٤ أجزاء كان البداية لهذا الفصل الفريد فى تاريخ الآداب الشعبية والرسمية على السواء، ومازالت المكتبة الوطنية بباريس تحتفظ بأجزاء ثلاثة من مخطوط جالان[1].

إلا أن الحديث عن مخطوط جالان فى المكتبة الوطنية، وما صدر عنه من بحوث، بعضها ذو أصل ثابت موثق وبعضها يشتط فى التكهنات، جدير بفصل منفرد. وما يعنينا إثباته هنا أن جالان كان أديبا ذا قلم، ولم يكن مترجما ملتزما، ألبس ترجمته «ثوبا أوروبيا» قربها إلى أذهان قرائه وأذواقهم، فنجحت (ألف ليلة) على يديه فى غزو خيال القارىء الأوروبى حتى يومنا هذا. ظهر الجزء الأول من ترجمة جالان الفرنسية سنة ١٧٠٤، وتوالت الأجزاء حتى ١٧١٢ (عشرة مجلدات). وظهر مجلدان بعد وفاته بسنتين (١٧١٧)، وترجم النص الفرنسى مباشرة إلى الإنجليزية وأعيد طبعه مرات ومرات (أحصيت فى المكتبة البريطانية ـ مكتبة المتحف البريطانى ـ ١٩ طبعة مأخوذة عن جالان قبل نهاية القرن ١٨)، وأثارت الترجمة فى بريطانيا الفضول والشغف نفسيهما اللذين أثارتهما فى فرنسا.

كان القرن الثامن عشر يمثل سيادة الأدب الكلاسيكى والقيم التقليدية الراسخة فى كل الفنون، وكان الأدب الفرنسى هو المثال الذى يحتذى فى الآداب الأوروبية الأخرى، فطلعت فيه (ألف ليلة وليلة) ظاهرة فنية خلابة تمثل النقيض الصارخ لكل مقتضيات الفن الكلاسيكى الصارم، فكانت قذى فى أعين أصحاب الاعتدال وأساطين الذوق السليم، لكن جمهرة القراء وجدوا فيها متنفسا للخيال المغرب المنطلق، وأدرك الكتاب والناشرون احتفاء السوق بهذا النوع من القصص فمضوا يلبون حاجته إليها، فإذا بظاهرة أدبية جديدة هى فن أو «مودة» القصص الشرقى تنتشر فى فرنسا ومنها إلى إنجلترا وبقية أوروبا، ورحب الناشرون بأى قصص أو «ليال» شرقية من أى نوع، فظهرت على الفور (قصص تركية) (١٧٠٦)، ثم (قصص فارسية)، وهى ترجمة (ألف يوم ويوم) الفارسية، ترجمها بتى دى لا كروا زميل جالان فى مدرسة الألسن، وذكر فى مقدمتها أنه حصل عليها من شيخ فارسى أسماه «درويش مكلس» (مخلص)، وتبعتها (قصص صينية) و(قصص مغولية)...، كلها نشرت بالفرنسية ومنها ترجمت إلى الإنجليزية وإلى لغات أوروبية أخرى، وكلها تسبقها مقدمات تدعى أن الكتاب ترجمة لمخطوط حصل عليه المترجم أو صديق له أثناء رحلة فى بلاد الشرق العجيب، لا فرق فى ذلك بين قصص شرقى أصيل، وكتابات مختلقة من نسج خيال مؤلف فرنسى أو إنجليزى. وأغرق الناشرون سوق الكتاب بهذه القصص؛ فاتهم النقاد كتاب (القصة الشرقية) بالكذب والمبالغة فى وصف القصور الفاخرة والجواهر الثمينة والدور الذى يلعبه السحر فى حياة أبطال الحكايات، وشكك بعضهم فى صحة نسبة هذه القصص إلى أصل شرقى ابتداء. إلا أن جمهور القراء ظل على شغفه بها، واستمرت بابا مفتوحا لكل من يبحث عن شهرة أو مال، حتى اتهم اسكندر بوب ـ شاعر الكلاسيكية المبرز ـ الخاملين من الكتاب بأنهم أضحوا «يطبخون» القصة الشرقية بنصف ريال!

أضحى همّ كل من وطئت قدماه بلدا من بلاد المشرق أن يحصل على مخطوط لـ (ألف ليلة)، لأسباب

ثقافية أو تجارية، وكل يعلن عند عودته عن حصوله على مخطوط «كامل» لـ (ألف ليلة وليلة)، مما يفسر العدد الكبير في مكتبات أوروبا، والاختلاف الواضح بينها حسب البلد مصدر المخطوط ومكان كتابته.

زاد عدد الرحالة والموظفين الأوروبيين فى الشرق (من الإنجليز والفرنسيين خاصة) فى أخريات القرن الثامن عشر بازدياد التجارة والتعامل مع الدولة العثمانية وامتداد مسرح التنافس المسلح على المستعمرات إلى شبه القارة الهندية، وكثرت كتب الرحلات عن الشرق ومذكرات «المسافرين» من كل جنس، وأخذ عدد من الرحالة على عاتقه الشهادة بصحة ما جاء فى (ألف ليلة) من وصف لعادات الشرقيين وطرق معيشتهم، كما حرص عدد منهم على وصف جلسات المستمعين فى المقاهى وطريقة الرواة فى إلقاء القصص. ومن أشهر هذه الكتابات شهادة طبيب يدعى باتريك راسل نشرها فى كتاب عن مدينة حلب فى ١٧٩٤، وكان الكاتب قد خلف أخاه باعتباره طبيبا مقيما فى حلب فأقام فيها ما يزيد على عشرين سنة، ونشر طبعة جديدة لكتاب الأخير عن «الطاعون» باسم (التاريخ الطبيعى لمدينة حلب) أضاف إليه فصولا عن حياة أهل حلب خاصة وأهل الشام وبلاد الدولة العثمانية عامة، فأضحى موسوعة شيقة للحياة الاجتماعية والثقافية لأهل هذه المدينة العربية العريقة. أورد باتريك راسل فى كتابه وصفا لطريقة إلقاء الراوى قصص (ألف ليلة وليلة)، وقال فى وصفه جملة تناقلتها المجلات الثقافية آنذاك، ولعلها كانت المرة الأولى التى يناقش فيها القارئ الأوروبى طريقة إلقاء القصص الشعبى فى المحافل ويسقطها على ما يعرفه من ملاحم هوميروس وأشعار أجداده النورديين والأنجلو سكسون ـ قال راسل إن الراوى يقوم بإلقاء «شبه مسرحى»، ويكاد يعبر بالحركة وهو يحكى القصة، وأضاف أنه من المعتاد أن يترك البطل أو البطلة فى مأزق، ويفلت هاربا من بين المستمعين كى يحفزهم على ارتياد المقهى فى الليلة التالية ليستمعوا إلى ما تبقى منها.

وصف راسل المخطوط الذى حصل عليه فى حلب بعد مرور قرابة تسعين عاما من تاريخ مخطوط جالان، ذاكرا أن اسمه بالعربية (Elf Leily) ، ولم يزد ما جمعه بشق النفس على ٢٨٠ ليلة لندرة الكتاب فى حلب!

أيد مستشرق من الضباط الذين خدموا فى الهند رواية راسل عن طريقة القص فى (ألف ليلة) بوصف طريقة الراوى فى الهند! وكان الكتاب والقراء فى أخريات القرن الثامن عشر لا يفرقون كثيرا بين الهند والشام، فكله عندهم شرق؛ على اختلاف اللغة والجغرافيا والعادات.

انتهز الكابتن سكوت النقاش الذى ثار فى الدوريات الثقافية الإنجليزية حول أصل (ألف ليلة وليلة) وطريقة روايتها والفروق بين القصص المذكورة فى نشرات متفرقة، وأعلن عن حصوله على:

«نسخة من (ألف ليلة وليلة) كاملة لعلها أكمل نسخة وردت إلى إنجلترا وربما أوروبا قاطبة، اشتراها من الأستاذ وايت أستاذ كرسى اللغات الشرقية فى أكسفورد، فى ٧ أجزاء مخطوطة جمعها فى تركيا والليفانت (شرق البحر الأبيض المتوسط) السيد إدوارد ورتلى منتاجو».

نشر هذا الخبر فى المجلد الثانى من (ذخائر شرقية) ١٧٩٧[٢] على لسان الناشر المستشرق ـ الدبلوماسى ـ الرحالة ـ سير وليم أوزلى الذى أكد للقراء أن المخطوط الجديد يحوى كثيرا من القصص التى لم ترد فى ترجمة جالان، وأنه يأمل أن يصدر الكابتن سكوت ترجمة لـ (ألف ليلة وليلة) كاملة. وقدم سكوت قائمة بمحتويات المخطوط مقسمة على ألف ليلة وليلة فعلا،

موضحا أن هناك فجوة، من ١٤٠ ليلة، سقطت بين الجزئين الثانى والثالث.

يشير ريتشارد بيرتون، فى الثبت الذى أورده فى الجزء العاشر من ترجمته لـ (ألف ليلة)[٣] فى أخريات القرن التالى، إلى هذا المخطوط باسم «مخطوط سكوت». وتبعه فى ذلك الباحثون فى تاريخ (ألف ليلة) وإن ذكروا جميعا أنه أصلا يعود إلى ورتلى منتاجو الذى حصل عليه من «تركيا»، وكان اسم تركيا يستخدم للدلالة على جميع مناطق الدولة العثمانية. وهو المخطوط الذى نفصل الحديث عنه فى هذا البحث لأهميته فى نظرنا من وجهين: أولا لأنه أول مخطوط لـ (ألف ليلة وليلة) خرج من مصر إلى بريطانيا، وقد أهمله الباحثون. وثانيا لأثره المباشر فى كاتب من أهم كتاب القصة الشرقية فى الأدب الإنجليزى هو وليم بكفورد مؤلف قصة «فاثك» أو الخليفة الواثق (١٧٨٦).

*

مخطوط ورتلى ـ منتاجو لـ (ألف ليلة وليلة) من مقتنيات المكتبة البودلية بأكسفورد تحت رقم Orient 550-7 . ذكره زوتنبرج[٤] ، وهو العمدة بين الدارسين الأوروبيين لمخطوطات (ألف ليلة) فى أخريات القرن الماضى، ولكنه اعتبره ثانويا من حيث القيمة إذ «يحتل مكانا هامشيا لطبيعة قصصه وطريقة توزيعها، ومصدره غير مؤكد». وتبع زوتنبرج جميع الباحثين فى قصص (ألف ليلة) ومصادرها حتى مايا جرهارد[٥] فى الستينيات من قرننا هذا، كما خلط بعضهم بينه وبين مخطوط أصغر محفوظ فى مكتبة كلية كرايستشرش فى أكسفورد.

ولعل السبب فى إهمال المترجمين الإنجليز هذا المخطوط هو ضعف إلمام كل من الأستاذ وايت المستشرق المحترف، وكابتن سكوت المستشرق الهاوى، باللغة العربية، خاصة العامية المصرية، وكذلك الفحش الصريح لعدد من القصص المصرية التى تميز هذا المخطوط (وهى المجموعة التى اختارها ريتشارد بيرتون بالذات وترجمها فيما سماه «ليال إضافية»[٦] أفرد لها المجلد الخامس من الليالى الإضافية التى ألحقها بترجمته الشهيرة لألف ليلة فى عشرة مجلدات).

يرجع تاريخ المخطوط فى المكتبة البودلية بأكسفورد إلى سنة ١٨٠٢ ، عندما باعه سكوت لهذه المكتبة، ووضع له فهرساً بالحكايات وعدد الصفحات فى كل جزء باللغة الإنجليزية وكذلك بالعربية، وكانت قائمة المحتويات بالإنجليزية قد نشرت فى (ذخائر شرقية) ١٧٩٧ ، وأضيف إليها البيان نفسه باللغة العربية فكشف عن ضعف إلمام سكوت باللغة العربية والخط العربى كذلك، وقد أثبت فى مقدمة المجلد الخاص بالفهرس عن أصل المخطوط أنه:

«جلبه من الشرق السيد إدوارد ورتلى منتاجو المحترم وبيع فى جلسة بيع مخطوطاته بالمزاد، اشتراه الأستاذ وايت من جامعة أكسفورد ثم باعه لجوناثان سكوت الذى باعه بدوره إلى أمناء المكتبة البودلية المبجلين».

أضفى سكوت على المخطوط الصفات نفسها التى ذكرها متباهيا فى (ذخائر شرقية) (١٧٩٧): «أكثر نسخة كاملة Perfect لـ (ألف ليلة) وردت لإنجلترا وربما أوروبا جمعاء»، مع تأملات عن الفروق بين نسخ (ألف ليلة وليلة) وغيرها من القصص الشرقى، مما ورد إلى أوروبا آنذاك، كما نقل إلى صفحات الفهرس نص المكاتبات التى نشرتها مجلة «جنتلمانز ماجازين» بشأن مخطوط (ألف ليلة) الذى اشتراه باتريك راسل من حلب، وغير ذلك من استفسارات القراء وتعليقاتهم، لتصبح صفحات الفهرس المهدى «إلى مجلس الأمناء المبجل من خادمهم جوناثان سكوت» ٥٥ بدلا من ٣٢.

على أن نغمة حديث سكوت عن المخطوط تبدلت تماما بعد أن باعه لمكتبة البودليان، وتقاضى ثمنه لا ريب، فبعد الإعلان على لسان المحرر لـ (ذخائر شرقية) أن «من المنتظر أن يصدر مالك المخطوط ترجمة كاملة وأمينة تعطينا نصاً مرضيا لألف ليلة وهو الأستاذ العلامة مالك المخطوط»، ودعم سكوت هذا الأمل بإعلان عن نشر «ترجمة لقصص (ألف ليلة وليلة) لم ترد في جالان، يترجمها سكوت من مخطوط ورتلى منتاجو من ٧ أجزاء، جلبه من تركيا وهو اليوم فى حوزة جوناثان سكوت»، وذلك فى الصفحة الأخيرة من كتاب له صدر فى ١٨٠٠ بعنوان (قصص ونوادر ورسائل) ـ مترجمة عن الفارسية والعربية.

وعندما أصدر جوناثان سكوت طبعته التى زعم أنه راجعها ونقحها على الأصل العربى، اتضح أنها لا تزيد على ترجمة جالان المعروفة فى الإنجليزية منذ قرن، فيما عدا المجلد السادس الذى ضمنه عددا من الحكايات مأخوذة فعلا من مخطوط منتاجو، وكتب فى مقدمة الكتاب (١٨١١) يعلل مسلكه للقراء:

> «.... كم أحبط وخاب أمله كمستشرق يتوهم أن لديه كنزا فى ٧ مجلدات من ألف ليلة وليلة يستحق عناء البحث والترجمة، إذ وجد أن عددا كبيرا من الحكايات لا يصلح للنشر باللغة الإنجليزية فنسبة كبيرة من هذه القصص خارجة على الأدب واللياقة والعدد الباقى أتفه من أن يثير اهتماما لدى القارئ الأوروبى، مهما كان أثرها فى جميلات الحريم وفى المستمعين فى مقاهى الشرق».

ظل مخطوط منتاجو فى البودليان يشكل علامة استفهام، خاصة بعد أن انتخب ريتشارد بيرتون أقذع الحكايات ونشرها فى الجزء الخامس من (ليال إضافية) وأهداها إلى ماكس مولر وأستاذ آخر من أمناء المكتبة لرفضهما نقل المخطوط إلى مكان يناسب المترجم!

ولعل خير ما أفاد به بيرتون فى بحوث مقارنة نسخ (ألف ليلة وليلة) أنه أورد مخطوط منتاجو وغيره من المخطوطات والنسخ المطبوعة فى زمانه فى ثبت أو جدول يوضح العلاقة بينها، ويظهر منه بوضوح أن هناك قصصا لم تظهر فى غير هذا المخطوط من نسخ (ألف ليلة).

وليم بكفورد ومخطوط منتاجو:

كان وليم بكفورد (١٧٦٠ ـ ١٨٤٤) أول من ذكر شيئا عن هذا المخطوط فى كتاب منشور، وهو ما يعرف بطبعة لوزان من «رواية ڤاثك» (١٧٨٧) بالفرنسية، وكانت الطبعة الإنجليزية للرواية قد صدرت فى لندن فى العام السابق وادعى مترجم الرواية وناشرها أنها قصة شرقية أصيلة وردت من الشرق مع عدد من المخطوطات والكتب «أحضرها رحالة أديب»، ومثل هذه المقدمة كانت كفيلة بذيوع القصة المنحولة ونجاحها تجاريا فى السوق. سارع مؤلفها الحقيقى بنشر الأصل الفرنسى وقدم له بتأكيد أنه مؤلف القصة وأن «سوء تصرف أحد الأدباء» أدى إلى نشر الترجمة الإنجليزية قبل النص الفرنسى الأصلى، ولكنها ليست مأخوذة عن أصل شرقى. ووعد القراء بنشر قصص شرقى فى المستقبل، وأنه قبس نوره من «مجموعة المخطوطات الشرقية الثمينة التى خلفها السيد ورتلى مونتاجو، وأصولها اليوم فى حوزة السيد بالمر المحامى ووكيل أعمال دوق بدفورد».

ولعل (ڤاثك) وظروف نشرها وشخصية مؤلفها[٧] من القصص المهمة فى تاريخ الصراعات الأدبية وما يحيط بظهورها من ظروف خاصة بالمؤلف والمجتمع المحيط به، ففى حالة بكفورد يظهر اعتراض الأهل والمربين على (ألف ليلة) وتوجسهم من تأثيرها على شاب تعلق الأسرة عليه الآمال فى أن يكون من رجال الدولة البارزين.

أولع بكفورد منذ طفولته بقصص الشرق العجيب وبكتب الرحلات والغرائب، وكان الوارث الوحيد لرجل

عصامي من التجار، وأصحاب مزارع القصب والعبيد في جاميكا، مات عنه أبوه وهو في العاشرة وكان أحد الأوصياء عليه رئيس الوزراء في ذلك الوقت، ورعته أمه وهي من أسرة نبيلة في اسكتلندا (آل هاملتون)، فأبقته بجوارها، وتوفر على تعليمه مدرسون خصوصيون في كل فن، فنشأ شديد الحساسية متعدد المواهب وأولع بقصص (ألف ليلة وحكايات فارسية) وبالحديث عن الشرق عموما، وعزف عن الصيد والرياضة والمعارف الرجولية ـ من وجهة نظر أسرته ـ التي تطمح في أن يصير يوما من الحكام، وتوجس أولياء أمره ومربوه من أثر الحكايات الشرقية على عقله الغض فحرمت عليه، بل أقنعه مؤدبه بإلقاء حزمة من المخطوطات المصورة الثمينة في النار «قربانا على مذبح الذوق السليم»، وكتب بذلك مهنئا فخوراً إلى الوصي على الصبي، إلا أن ذلك الفتى الثرى لم يعدم من يزوده بالحكايات المنوعة والرسوم والزخارف الشرقية التي يعشقها سرا، وعندما بلغ سن الرشد طرح عنه كل قيد، وانغمس في «تعاطي» الحكايات الشرقية، واستأجر كبار الموسيقيين ومهندسي الإخراج ليعيش هو وضيوفه المنتخبون في جو سحري معزول تماما عن العالم الخارجي؛ لعبت فيه حكايات (ألف ليلة) المأخوذة من مخطوط منتاجو بالذات دورا مهما في متعة نخبة الضيوف المدعوين لقصره لقضاء فترة أعياد الميلاد ورأس السنة. في شتاء ١٧٨٠ ـ ١٧٨١؛ كتب بكفورد في رسالة الدعوة لأحد ضيوفه يعده بتقديم حكايات من (ألف ليلة) «ساخنة، ملتهبة من فم الراوي مباشرة» مباهيا: «أستاذي للغة العربية مسلم من مواليد مكة»! وكانت ظاهرة المترجمين العرب، خاصة من اللبنانيين المسيحيين، منتشرة في أوروبا في ذلك الحين، إلا أن بكفورد أصر على أن مترجمه «مسلم من مواليد مكة»، ويشير إليه باسم زمير Zemir، ولعله كان يدعى «سمير»، فقد رأيت في أوراق بكفورد[٨] الخاصة كلمة «سمر» مكتوبة بخط مبتدىء، وهو من مواليد الدولة العثمانية على أي حال، والإشارة إلى مكة بالذات إضافة رومانسية من الشاب الإنجليزي المتحمس أو إضافة من المعلم المترجم الذي يعمل على رفع أجره.

يتضح من فحص الأوراق الخاصة والمخطوطة التي خلفها وليم بكفورد[٨] أن حكايات (ألف ليلة) الساخنة، التي قدمها الشاب المنتشي بكسر أغلال الوصاية كانت من مخطوط منتاجو، فبين هذه الأوراق ترجمة إنجليزية تكاد تكون كاملة لمخطوط منتاجو إلا أنها مسودة وبخط لم أستطع أنا أو غيري من الباحثين في أوراق وليم بكفورد تعرّف صاحبه أو صاحبته من بين من كانوا يعملون في خدمته، كما أنها ليست بخط بكفورد نفسه. ومن الواضح أن كاتب الترجمة كان يدون ما يسمع من «إلقاء شفاهي».

وإلى جانب هذه المسودات (يزيد حجمها على ألف صفحة في فروخ ورق فوليو) هناك عدد كبير من قصص (ألف ليلة) مأخوذ عن المخطوط نفسه ومكتوب بالفرنسية مع تعديل في الحبكة وفي القصة عموما يجعلها أكثر إحكاما، وهي من تحرير بكفورد نفسه، ونسخ أديبة فرنسية مسنة كانت تعيش في كنفه وتراجع أسلوبه في اللغة الفرنسية. كان بكفورد يزمع نشرها إذ وجدت في أوراقه مقدمة كتبها لإحداها وهي حكاية «أنس الوجود والورد في الأكمام»، يعترف بكفورد في هذه المقدمة أن خياله جمح به فخرج عن النص العربي وأعاد كتابة القصة كما لو كان هو مؤلفها، وأن أستاذه حاول كبح جماحه بلا فائدة.

لم يكن بين الباحثين في أعمال وليم بكفورد (التي بقي معظمها دون نشر في أوراق) من يعرف اللغة العربية؛ فلم يثبتوا أو يحققوا الصلة الوثيقة بين «أوراق بكفورد» ومخطوط منتاجو لـ (ألف ليلة)، وكان همهم التنقيب عن حكاية أو شذرة يمكن أن يرجع إليها الأصل في رواية (فاثك) (١٧٨٦)، ولو كان أحدهم

مسلما أو عربيا لما خالجه شك فى أن القصة منحولة وأنها أوروبية الفكر مع الاستعانة بأسماء أماكن وشخصيات من الشرق.

لم أعثر أنا أو غيرى على أصل لرواية بكفورد فى مخطوط منتاجو لـ (ألف ليلة)، ولم يكن الشاب الإنجليزى ذو الخيال الجامح فى حاجة إلى مرجع شرقى أكثر مما ورد عن الخليفة الواثق فى موسوعة ديربلو (١٦٨٩) وما قرأه فى (ألف ليلة) وغيرها من وصف لبذخ القصور وغلبة قوى السحر على حياة الناس، وأسماء أماكن ومدن تسحر الأذن كبغداد وسامرا واصطخار وشيراز والموصل وغيرها.

على أننى وجدت فيما سطر على حواشى المخطوط باللغة الإنجليزية بخط سكوت، وماورد فى أوراق بكفورد ومراسلاته، ما مكننى من استجلاء أصل المخطوط ومكان كتابته فى مصر فى القرن الثامن عشر، وتحديد مسار المخطوط حتى استقر بالمكتبة البودلية بأكسفورد(٩) .

يقع المخطوط كما أسلفنا فى ٧ مجلدات يضاف إليها مجلد يحمل الفهرس وملاحظات المستشرق جوناثان سكوت، يتساوى عدد أوراق كل مجلد (قرابة ٣٠٠)، ولكن القارىء يكتشف أن تقسيمها جاء اعتباطا لأن عددا منها يبدأ فى منتصف الجملة! كاتبها ليس خطاطا ولا مثقفا ولغتها عامية. ومن الواضح أنها مكتوبة فى مصر بلغة عامية «فلاحى»، وقد استشف ريتشارد بيرتون ذلك فرجح أن يكون ورتلى منتاجو حصل عليها من القاهرة، ولم يحاول بيرتون أن يدقق تواريخ إقامة منتاجو فى مصر.

يورد ناسخ المخطوط اسمه: «عمر الصفتى غفر الله له» فى آخر المخطوط، ويورد التاريخ على أنه ١٨ صفر ١١٧٨ من الهجرة، كما يورد فى ختام الجزء الثانى التاريخ: ٢٠ شعبان ١١٧٧هـ، أى أن نسخ المخطوط استغرق حوالى ستة أشهر. وحسب كل من زوتنبرج وبيرتون أن هذه الشهور تقع فى أواخر ١٧٦٤ وأوائل ١٧٦٥. وإذ يتتبع الباحث سيرة ورتلى منتاجو وأسفاره فى الستينيات من القرن ١٨(١٠) ، نجد أنه جاء إلى الإسكندرية من لجهورن فى إيطاليا فى أبريل ١٧٦٣، ثم أقام فى رشيد فى العام التالى، واتخذ معلما للغة العربية وأخذ يجمع المخطوطات الثمينة ويخاطب الجمعيات العلمية. كتب فى رسالة إلى الجمعية الملكية قرئت بالنيابة عنه فى مارس ١٧٦٦:

«وجدت مصحفا ثمينا ولكنى لم أتمكن من شرائه لأنه فى الجامع الرئيسى ويلزمنى ٢٠٠ جنيها على الأقل لأقنع الإمام أن يسرقه لى(!)».

غادر ورتلى منتاجو مصر لفترة قصيرة واحتفظ ببيته وكتبه فى رشيد، وكذلك احتفظ بجارية حبشية أنجبت له ولدا. وبعد سنوات من التنقل استقر فى الإسكندرية مع جاريته عائشة وابنه مسعود فى ١٧٧٢ وكلف معلمه السابق الشيخ على بتعليم الصبى القراءة والكتابة، وتولى هو تعليمه اللغة التركية.

وعند وفاة ورتلى منتاجو فى ١٧٧٦، اتضح أنه أوصى بمكتبته من المخطوطات والكتب الشرقية لابنه مسعود الذى انتقل إلى إنجلترا تحت وصاية لورد ساندوتش والمحامى بالمر الذى احتفظ بالمكتبة لصالح الابن ونفذ وصية الوالد: أن يعيش مسعود فى الريف ويتعلم اللغة الإنجليزية ولا يقرب اللاتينية أو اليونانية ولا يقطن فى أى وقت فى لندن أو أكسفورد أو كامبريدج!

وعند وفاة مسعود بيعت المكتبة فى المزاد سنة ١٧٨٧، واشترى الأستاذ وايت مخطوط (ألف ليلة) ومنه اشتراه جوناثان سكوت الذى باعه بدوره لمكتبة البودليان بأكسفورد. على أن من الواضح من أوراق وليم بكفورد

أن مخطوط (ألف ليلة) موضوع البحث كان فى حوزة وليم بكفورد فى فترة أعياد الميلاد سنة ١٧٨٠، عندما كانت ترجمة الحكايات وروايتها «ساخنة» تمثل أشهى المتع والطيبات التى وعد بها ضيوفه. وفى رسالة مكتوبة بالفرنسية ومحفوظة فى أوراق بكفورد تبشر ليدى كرافن صديقها الشاب أن السيد بالمر أرسل قائمة بالمخطوطات التى فى حوزته، وتدعو بكفورد أن يفحص معها القائمة «حتى لا يحدث خطأ فى اختيار ما يترجم». وكانت ليدى كرافن شابة من أسرة نبيلة، جميلة ورعناء تعيش منفصلة عن زوجها ويدعوها بكفورد فى رسائله «فتاتى العربية الساحرة»، وكانت واحدة من ضيوفه. فى ذلك الاحتفال الممتد الذى أثار كثيرا من الأقاويل عن ممارسات غريبة وسحر أسود! عاد المخطوط إلى بالمر، ولعل ذلك كان فى ١٧٨٣ عندما اضطر بكفورد إلى الإقامة فى سويسرا، وعندما طرح للبيع فى المزاد لم يحرص بكفورد على شرائه بل اكتفى بإرسال مندوب اشترى «حزمة واحدة من أوراق مشابهة»، كما أفاد الأستاذ وايت عندما سئل عن الفجوة الواضحة فى المخطوط.

ولم يظهر لهذه الأوراق المكتوبة بالعربية أثر فى أوراق بكفورد، ولم يستطع أى من الباحثين العثور عليها أو التكهن بما فيها، أو إثبات صحة كلام وايت من عدمه، لكن الثابت أن مخطوط ورتلى لـ (ألف ليلة) فيه خلط وتكرار وفجوات كثيرة، وأن عددا من المجلدات يبدأ فى منتصف حكاية وأحيانا فى منتصف جملة.

وصف المخطوط :

١ ـ يحتوى المخطوط على ٧ مجلدات كما أسلفنا، مع أن الكتالوج المعد لجلسة البيع بالمزاد يورد ذكر ٦ أجزاء فقط، ومن الواضح أن جوناثان سكوت هو الذى رتب أوراق المخطوط ورقمها بحيث تصل إلى ٧ مجلدات. ويورد المجلد الأول القصة الإطار فى (ألف ليلة) (Bodl. Orient 550) ولكن اسم الملكين يرد على أنه الملك باز وأخوه الأصغر كهرمان، وخط هذا المجلد ردىء وفيه صفحات بفقرات مكشوطة، وعدد ٥ صفحات مكتوبة بخط مختلف.

عدد أوراقه ٣٣٩ ورقة وهو أسوأ الأجزاء كتابة ولكنه الخط نفسه فى المخطوط كله.

٢ ـ المجلد الثانى (Bodl. Orient 551) أقصر المجلدات (١٥٢ ورقة) وأحسنها خطا، ويمتاز بخاتمة يرد فيها: هذا ختام الجزء الرابع (!) من (ألف ليلة وليلة) فى ٧٧ ليلة على التمام. فى ٢٠ شعبان سنة ١١٧٧. هذا برغم أن صفحة العنوان تورد «الجزء الثانى من ألف ليلة وليلة فى ٩٣ ليلة على التمام..» مما يرجح أن هذا الجزء أصلا كتب لمجموعة منفصلة، وأضيف فيما بعد إلى مجموعة منتاجو، وهو يحمل حكاية قمر الزمان كاملة، ويختم بوفاة أبيه شاه زمان وتولى قمر الزمان الملك.

٣ ـ المجلد الثالث (Bodl. Orient 552) يحوى ٢٢٩ ورقة ويبدأ فى منتصف جملة لا علاقة لها بالمجلد السابق، ويقص «حكاية حسن البصرى» من منتصفها تقريبا. وهذا هو الجزء الذى ذكر سكوت فى الفهرس أنه لاحظ «فجوة» من ١٤٠ ليلة سأل عنها وايت فأحاله إلى بكفورد.

ينتهى الجزء الثالث فى منتصف جملة تكتمل فى بداية الجزء الرابع.

٤ ـ المجلد الرابع (Bodl. Orient 553) يحوى ٢٨٨ ورقة. نجد فيه بداية الحكايات التى أعاد بكفورد كتابتها بالفرنسية، وأدخل عليها كثيرا من نتاج خياله هو، وهى قصة مازن التى تشبه كثيرا «حكاية حسن البصرى». تبدأ حكاية مازن فى الورقة ١٧٩ وفى الهامش تعليق بخط سكوت: «حكاية مازن يقول الأستاذ وايت إنه ترجمها بطلب من ليدى كرافن أميرة أنسباخ (اسم زوجها الثانى)». وينتهى المجلد قبل نهاية الحكاية.

٥ ـ يورد المجلد الخامس ما تبقى من حكاية مازن يليها مباشرة عدد من نوادر هارون الرشيد، وما يلقى عليه من حكايات لتسليته إذ «يضيق صدره» فيخرج ليلا متخفيا ليسرى عن نفسه، ترد فيها إشارات جنسية صريحة بلغة عامية مصرية، الأرجح أنها من وجه بحرى وخلفيتها مصرية. وينتهى المجلد (٢٣٧ ورقة) فى بداية قصة التاجر الشامى ونساء القاهرة.

٦ ـ يحوى المجلد السادس (Bodl. Orient 555) ١٨٢ ورقة، ويورد قصة التاجر الشامى والنسوة المحتالات، ثم يورد عددا آخر من النوادر الجنسية التى اختارها بيرتون فيما بعد ليضمها إلى الليالى الإضافية، وكلها مصرية صريحة، وينتهى المجلد فى منتصف قصة الوزيرين الأخوين أحمد ومحمد .

٧ ـ المجلد السابع (Bodl. Orient. 556) يحوى ٢٠٦ ورقة، ويكمل حكاية الوزير محمد وابنته وأخيه وابن أخيه، ويسرد قصص سلاطين آخرين ـ سلطان الأندلس ـ ملك العراق، ويختم بحكاية سلطان الصين الذى تزوج بنت التاجر. وفى صفحة الختام «ترويسة» مثلثة مزخرفة بالحبر الأسود والأحمر فيها اسم الناسخ «الفقير إلى الله عمر الصفتى غفر الله له»، والتاريخ كما أسلفنا ١٨ صفر ١١٧٨هـ.

أسلوب الحكايات فى مخطوط منتاجو: لغة المخطوط كما أسلفنا عامية مصرية، فيها كثرة من الأخطاء الإملائية والأخطاء فى كتابة الأسماء، وتلفت هنا نظر الباحثين فى اللغات العامية فى اللغة العربية، فهذا نص عامى مصرى محفوظ منذ منتصف القرن الثامن عشر.

ويحتفظ الراوى بتقسيم السرد إلى ليال، ولا يفتأ بعد فقرات (تقل أحيانا إلى فقرة أو فقرتين) أن يكرر انقطاع شهرزاد عن الحديث لطلوع الفجر ثم عبارة «لما كانت الليلة التالية قالت دنيازاد.. إلخ..» تكتب بقلم أغلظ وكلمات منها بمداد أحمر.

وتلتقط شهرزاد خيط الحكاية بالكلمات نفسها كل ليلة: «بلغنى أيها الملك السعيد الموفق الرشيد صاحب الرأى السديد والفعل الجميل الحميد قال الراوى حكى والله أعلم بغيبه وأحكم وأعز وأكرم فيما مضى وتقدم وسلف من أحاديث الأمم أنه كان فى قديم الزمان والعصر والأوان وسالف الأيام بمدينة ...».

والتكرار سمة عامة فى السرد وفى التعليق، وكثيرا ما يرد فى أحداث القصة وحبكتها؛ فحكاية «مازن» شبيهة بحكاية حسن البصرى وزوجه ابنة ملك الجان. وإلى جانب الحكاية الإطار ـ ولاختتام لها كما فى طبعة بولاق مثلا ـ نجد الحكايات متداخلة وشخصياتها تقص قصصا كثيرة لمجرد قضاء الوقت أو للخروج من مأزق أو للتدليل على ما ورد فى حديث لها.

وفى مناسبات الوصف يترك الراوى خيط الحكاية، ويستغرق فى الوصف بلغة مسجوعة قد يضمنها أبياتا من الشعر. يقول فى وصف معركة فى حكاية «مازن»:

«فوقعت العين على العين واصطفت العساكر واعتدلت الصفوف وتقدمت الألوف فلم تكن إلا ساعة حتى التقلت [!] الجيشان وخاف الجبان ووثب الشجاع حتى أرسلوا من أفواههم النيران حتى غابوا عن الأعيان وحذفوا الروس عن الأبدان وجرا الدم وساح وتقطعت الرماح وضاق متسع البطاح وزاد الصياح وراح ونادا الشجاع لأبراح فلم يزل السيف يعمل والدم يذل ونار الحرب تشعل وقد شحوا بالأرواح فما كنت ترى إلى جواد عاير (!) ودم فاير فلم يزالوا كذلك إلى الليل وانفصلت الطايفتين وخمدت النيران ..». (الجزء الخامس ورقة ٧٢).

أما وصف الجمال فتقليدى، لا فرق فيه بين كون الموصوف ذكرا أو أنثى: تبدأ شهرزاد فى وصف مازن فتقول:

«شاب مليح نقى الأثواب طيب الكلام حسن الابتسام معتدل القوام كأنه غصن بان أو عود خيزران كان اسمه مازن كما قال فيه بعض واصفيه هذه الأبيات:

جـــاء وفى قـــده اعـــتـــدال
مـــهـــفـــهـف مـــا له مـــثـــيل
وقـــد حـــقـــقـت عطفـــه شـــمـــالا
واثقلت جـــفـنه شـــمـــول
ثم انثنا راقـــصـــا بخـــده
فـــثنى إلى نحـــوه العـــقـــول
فـــجـــسم ناحل حـــفـــيـف
وردف خـــــارج ثقـــــيل»

ولعل التشبيب بفتنة الأبطال فى (ألف ليلة) مما فتن وليم بكفورد فى فورة ضيقه منذ صباه المبكر بالقيود التى تفرضها أمه الاسكتلندية المتزمتة وأوصياؤه من النبلاء المتعجرفين، هذا إلى جانب المغالاة فى وصف العواطف والانفعالات؛ فالعشاق «يغشى عليهم من لذة الوصال»، وهذا وارد فى جـــمـــيع نسخ (ألف ليلة)، ولكن نص مخطوط منتاجو يضاعف فترات الإغماء فى بعض الحكايات؛ فـــفـى حكاية «أنس الوجـــود والورد فى الأكمام»، يعقد الملك درياس عقد الحبيبين بعد طول شتات، ويحكى أنس الوجود لزوجه قصة ابن الملك وبنت الوزير ثم «يتعانقان ويمضى عليهما أسبوعان لا يعرفان من يروح ومن يجىء» (المجلد الرابع ص٣٠٨).

وبالمقارنة بالحكاية نفسها فى الطبعة المصرية الشعبية، المتداولة اليوم، نجد أنهما «غرقا فى بحر الغرام ومضت عليهما سبعة أيام وهما لا يدريان ليلا من نهار» (الجزء الثانى ص٢٨٣).

لعل وليم بكفورد كان الأديب الأوروبى الوحيد الذى أتيح له أن يطلع على عالم (ألف ليلة) كما صوره خيال الراوى الشعبى المصرى دون مصفاة المترجمين الأدباء. والحديث عن أثر (ألف ليلة وليلة) فى الأدب الإنجليزى وخصائص القصة الشرقية حديث طويل نفرد له فصلا قادما. على أن دراسة مخطوط منتاجو يمكن أن تقدم للباحث المصرى فى الأدب الشعبى واللغة العامية المصرية مادة خصبة، إلى جانب ما يقدمه لدراسات (ألف ليلة).

الهوامش :

لمزيد من التفصيل لعدد من نقاط هذا البحث انظر:

1. Abdel Halim, Mohamed. **Antoine Galland, Sa Vie et son œuvre.** Paris, 1964.
2. **Oriental Collections, II** (1797).
3. Burton, Richard F. **Alf Laylah wa Laylah: Book of the Thousand Nights and a Night,** vol x, 1888.
4. Zotenberg, H. **Histoire d'Ala Al-Din...... avec une notice sur quelques Manuscrits des Milles et Une Nuits,** Paris 1888.
5. Gerhardt, Mia. **The Art of Story-Telling, A Literary Study of the Thousand and One Nights,** Leiden, 1963.
6. Burton, Richard F. **Supplemental Nights of the Book of the Thousand Nights and a Night,** 1888 Vol. V.
7. Moussa-Mahmoud, Fatma (ed). **William Beckford of Fonthill... Bicentenary Essays,** Cairo, 1960.
8. Beckford and Hamilton Papers, now in the Bodleian Library, Oxford.
9. Moussa-Mahmoud, Fatma. «A Manuscript - Translation of the Arabian Nights in the Bechford Papers.» **Journal of Arabic Literature,** VII, Leiden.
10. Curling, Jonathan. **Edward Wortley Montague, 1713-1776, The Man in the Iron Wig.** London, 1954.